" شخصية ابن شهيد الأندلسي (ت ٤٢٦هـ) وعلاقتها بأدبه "
دراسة سيكولوجية

د. حسن احمد علي حيدر

ملخص البحث

يدور البحث حول شخصية ابن شهيد الأندلسي وعلاقتها بأدبه سواء كان شعراً أو نثراً أو نقداً ، حيث لوحظ أن الجانب النفسي والسلوكي لدى ابن شهيد قد طغى بنحو واضح على آثاره الأدبية ، فبدت تلك الآثار الأدبية شاهداً بيناً على نزعات نفسيه وسلوكية غير طبيعية لديه ، حاول هذا البحث الاهتداء إليها والكشف عنها ، من خلال قراءة متأنية ومتعمقة في أخباره وآثاره الأدبية .

فنحن ـ بذلك ـ أمام دراسة جديدة كشفت النقاب عن شخصية ابن شهيد الأندلسي ، وأماطت اللثام عن لغته الطاووسية والاستعلائية ، التي رأيناها تتردد بنحو لافت في آثاره الأدبية ، جعلنا نقطع بأننا أمام شخصية ذات نزعة نرجسية ، أكدت عليها شواهد كثيرة ، كالعجب والغرور والزهو بكل ما يصدر عنها ، واللغة المتعالية والنبرة الاستحقارية والنظرة الدونية إلى كل شيء سواها .

مقدمة :

اتجهت الدراسات الحديثة إلى اصطناع عدد من المناهج الأدبية والنقدية لدراسة الأدب وأعلامه، مثل المنهج التاريخي ، والمنهج الفني ، والمنهج الاجتماعي ، والمنهج النفسي ، وغيرها من العلوم الإنسانية التي أسهمت إلى حد كبير في تفسير كثير من ظواهر الأدب وفهم عالم أسراره . فالمنهج التاريخي يتتبع العمل الأدبي حسب أطواره التاريخية ، والمنهج الفني يتتبعه من نواحي فنية ، والمنهج الاجتماعي يتتبعه من حيث تأثير محيطه فيه ،والمنهج النفسي ، وهو منهجنا في هذه الدراسة ، يتتبع سمات صاحب العمل الأدبي من خلال أعماله ، وبيان خصائصه الشعورية والتعبيرية ، وكشف العوامل النفسية التي اشتركت في تكوين هذه الأعمال ووجَهتها هذه الوجهة المعينة [(١)] . وهذا المنهج من شأنه أن يعيننا – أيضا – في معرفة دلالة العمل الأدبي على نفسية صاحبه ، وكيفية ملاحظة هذه الدلالة واستنطاقها [(٢)].

وقد أفاد نقاد الأدب على الخصوص من الأبحاث النفسية ، إذ فتحت لهم دراسات الإنسان أبوابا ومنافذ إلى فهم شعره ورواياته وإنتاجه ، فراحوا ينادون بضرورة الانتفاع بالدراسات السيكلوجية في فهم الفن والأدب ، ودراسة الإنتاج الفكري وصلته بمنشئه [(٣)] .

أستاذ مساعد -رئيس قسم اللغة العربية - كلية التربية جامعة تعز

(١) ينظر : سيد قطب ،النقد الأدبي أصوله ومناهجه ، دار الشروق ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٩٨٠م ، ص ١١٣.

(٢) نفسه : ١٨٣ .

(٣) ينظر : محمد خلف الله ، من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٧م ، ص ١٢١.

ومن هذا المنطلق رحنا ندرس شخصية ابن شهيد الأندلسي وعلاقتها بأدبه ، حيث لاحظنا في آثاره الأدبية وفي أخباره الشخصية ما ينم عن نزعات تحمل كثيراً من المظاهر النرجسية ، مستعينين في ذلك بأبحاث علماء النفس ونظرياتهم ذات الصلة بهذه القضية التي تتناول الشخصية النرجسية ، فهناك جانب كبير من خصائص هذه الشخصية ينطبق إلى حد كبير على شخصية ابن شهيد . حيث يذكر علماء النفس أن من بين صفات الشخص النرجسي : الاعتماد المفرط على الإعجاب الخارجي وهتاف الاستحسان له ، وأخاييل العظمة التي توجد جنبا إلى جنب مع الشعور بالنقص ، والشعور بالملل والضيق والفراغ [٤] . ويقولون : إن هناك نوعين من النرجسية : النرجسية الصحية ، وهي التي تشير إلى احترام الذات ، ونرجسية مرضية ، وهي التي تقوم على تضخيم الفرد لأناه [٥] ، وكلا النوعين ينطبق على صاحبنا ابن شهيد ، كما سنرى .

ومن صفات الشخص النرجسي التي يذكرها علماء النفس – أيضا – الشعور المتعاظم بأهمية الذات أو التفرد وعلى سبيل المثال : المبالغة في الإنجازات أو المواهب ، والاستعراضية وحب الظهور ، وطلب الانتباه والالتفات إليه والإعجاب به ، بصفة مستمرة من قبل الآخرين [٦] . أما عن علاقة الشخص النرجسي بالآخرين فيصفونه : بأنه يستغرق في قدر عظيم من الازدراء والتقليل من شأن الآخرين [٧] . ويجمع علماء النفس على شعور الشخص النرجسي بالعظمة والإحساس بالمثالية وإعطاء قيمة عالية لأفضاله الشخصية [٨] وهي أمور قد رآها الباحث في شخصية ابن شهيد من خلال آثاره الأدبية وسيرته الذاتية سوف ينهض هذا البحث بتجليتها في هذه الشخصية .

وهذا البحث ، كما يظن صاحبه ، إضافة جديدة إلى سلسلة أبحاث في مجال الدراسات الإنسانية يتناول البعد النفسي في شخصية ابن شهيد الأندلسي وآثاره الأدبية ، المتمثل في نرجسيته واعتداده بنفسه ، وهذه الالتفاتة أو بالأحرى هذه النتيجة ، التي يحاول هذا البحث التوصل إليها في شخصية ابن شهيد من خلال سيرته وآثاره الأدبية ، ربما لم يلتفت إليها من قبل ، على حد علم الباحث ، بهذه الصيغة المتعمقة لنفسية ابن شهيد وشخصيته ، كما سيظهر لنا من خلال هذا البحث .

فبعض ما كتب حول ابن شهيد فيه إشارات تلمح إلى نزعة الاستعلاء والشعور بالتفوق عنده ، لكن ذلك لا يعدو كونه إشارات محدودة ومقتضبة وعابرة ، أما هذا البحث فهو دراسة مفردة للحديث

---

(٤) ينظر : عبد الرقيب أحمد البحيري ، الشخصية النرجسية دراسة في ضوء التحليل النفسي ، ، دار المعارف ، ط١ ، ١٩٨٧م . ص ٣٢ ، ٣٧.

(٥) نفسه : ص ٣٢ .

(٦) نفسه : ص٤٧ .

(٧) نفسه : ص٥٠ .

(٨) نفسه : ص ٤٣.

عن دوافع النرجسية لدى ابن شهيد وتتبع مظاهرها في سلوكه وأقواله بشكل يتناول القضية من جميع جوانبها .

وقد أجمع النقاد على أن ابن شهيد أديب وشاعر مبدع مجيد ، وناقد نظري وتطبيقي ، دلت على ذلك آثاره الأدبية التي لم يجد الزمان إلا بالقليل منها ، في المدونات الأندلسية مثل : " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " لابن بسام الشنتريني (ت٥٤٢هـ) . وقد لقيت رسالته " التوابع والزوابع " ، التي أثبتها ابن بسام في ذخيرته ، من الدرس والبحث الشيء الكثير ، حيث وقف الباحثون عند أبعادها الفنية وكشفوا عن جوانبها الإبداعية وأشادوا بمكانة صاحبها الأدبية إلى غير ما هنالك من الدراسات ذات الطابع التاريخي والفني . وبين أيدينا قائمة من العناوين التي تناولت ابن شهيد وآثاره الأدبية ومنها:

- جدلية المماثلة والمقابلة في " التوابع والزوابع " لابن شهيد ، توفيق بكار ، مجلة دراسات أندلسية.

هذه الدراسة ركزت على فلسفة التسمية والغموض في الرسالة .

- هناك دراسات ركزت على البنية القصصية في الرسالة مثل دراسة عبد العزيز شبل ، نشرت في حوليات الجامعة التونسية .

- وهناك دراسات تناولت حياة ابن شهيد وآثاره الأدبية مثل دراسة محمد طرشونة ، وشارل بلا محقق ديوانه ومحيي الدين ديب الذي قام بتحقيق ديوانه مؤخرا .

- وهناك دراستان ركزتا على الجانب القصصي وبنائه في الرسالة ، مثل دراسة رشيد رضا وإلهام الزياني من تونس .

- وهناك دراسة لحسين خريوش تناولت الرؤية الأدبية وفلسفة الإبداع في رسالة ابن شهيد .

- وهناك دراسة لإحسان عباس في كتابه " تاريخ النقد الأدبي عند العرب " ، تناول فيها النقد الأدبي عند ابن شهيد وغير ذلك من الدراسات ذات الطابع التاريخي والفني .

وكنت ، وأنا أقرأ في هذه الدراسات وفي الكتب القديمة التي أرخت لابن شهيد ، أمام شخصية مثيرة ذات طبيعة غير عادية ، فأخبارها وآثارها الأدبية تجعل القارئ مشدوداً إلى أشياء غريبة غير مألوفة في سائر المبدعين إلا قليلاً منهم مثل المتنبي ، هذه الغرابة تكمن في زهوه المفرط بنفسه ، واعتداده المطلق بذاته ، وغروره المتعاظم بما يصدر عنه ، واحتقاره لغيره من أبناء جنسه ، فأخذت نفسي بالنظر تلو النظر في هذه الشخصية والقراءة تلو القراءة فيما وصلنا من آثاره الأدبية ، وانتهيت إلى أننا أمام شخصية ذات نزعة نرجسية ، عاشها ابن شهيد معظما لذاته ومقدسا لكل ما يصدر عنها ، جعلتها موضوعاً لبحثي هذا .

وانطلقت في هذه الدراسة من أخباره وآثاره الأدبية المبثوثة في الكتب القديمة ، وبخاصة كتاب "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " ، وقد لاحظت في هذه الكتب ، إلى جانب ما فيها من تقريظ وإشادة بشاعرية ابن شهيد ومواهبه الأدبية ، إشارات إلى جوانب من حياته ونفسيته ، شجعت على خوض هذه التجربة في شخصية ابن شهيد وتسليط الضوء على أعماقها النفسية . فبدأت البحث

بالحديث عن شخصيته ، ثم نشأته وأخلاقه ، ثم علمه وأدبه ، لما لذلك من أهمية في تجلية الشخصية ، ثم أتبعت ذلك بالحديث عن مظاهر النرجسية في آثاره الأدبية ، فتحدثت عن إعجابه بشخصه وإعجابه بشعره وشاعريته ومواهبه الأدبية ، وتطرقت إلى لغة الاستعلاء والتحقير والسخرية التي تفوح بها تعليقاته في أكثر من مناسبة .

حياته:

اسمه ونسبه :

ينحدر ابن شهيد (٣٨٢- ٤٢٦هـ) من سلالة عربية بالولاء ، حيث ينتهي نسبه إلى الوضاح الأشجعي، فهو أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عمر بن شهيد بن عيسى بن الوضاح الأشجعي ، والوضاح هذا كان مع الضحاك بن قيس في موقعة مرج راهط المشهورة[٩]. وجده أحمد كان وزيراً لعهد الناصر عبد الرحمن بن محمد (ت ٣٥٠هـ) ، وله هدية عظيمة أهداها إلى الناصر المذكور تعكس مدى ضخامة ثروته، حيث يذكر مؤرخو الأندلس أنها كانت خمس مائة ألف مثقال من الذهب، ومائتا أوقيه من المسك والعنبر، وثلاثون شقة من الحرير المرقوم بالذهب، ومائة فرس مسرجة، وعشرون نعلاً عالية الركاب، وأربعون وصيفاً، وعشرون جاريةً بكسوتهن وحلتهن وأصناف عديدة أخرى . ويجمع مؤرخو الأندلس على أنه لم تقدم هدية في قدرها ونفاستها إلى ملك من ملوك الأندلس قدمها ابن شهيد إلى الناصر في سنة ٣٢٧هـ ومعها خطاب رقيق يشيد فيه بعظمة الناصر ومآثره، فوقعت لديه أحسن موقع، وزاده حظوة واختصاصاً، وأسمى منزلته على سائر الوزراء، وأسبغ عليه لقب ذي الوزارتين، فكان أول من حظي بهذا اللقب من وزراء الأندلس،وضاعف له رزق الوزارة، وجعله ثمانين ألف في العام .[١٠]، ووزر ابنه عبد الملك لهشام بن الحكم المؤيد من بعده[١١]، وأبو عامر صاحبنا هو الآخر قد بلغ الوزارة في عهد عبد الرحمن بن هشام الملقب بالمستظهر بالله[١٢]. وكان محظياً عند عبد العزيز

(٩) ينظر : ابن الأبار / أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (٦٥٨هـ) ، الحلة السيراء : تحقيق حسين مؤنس ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢ ١٩٥٨م ، ٢٣٧/١.

(١٠) ينظر : المقري / أحمد بن محمد التلمساني (١٠٤١هـ) ، نفح الطيب : تحقيق مريم قاسم طويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١ /٣٤٢. ويذكر المقري خطأً ، وينسب الخبر إلى ابن بسام ، أن أبا عامر كان في عهد الخليفة الناصر وسرد لهما حكايات وقعت بينهما ، والصحيح أن الذي كان يقصده المقري هو جده أبو عمر صاحب الهدية المذكورة وليس أبا عامر ، ولعل ذلك سهو منه ، والعجيب أنه نسب هذا الخبر إلى ابن بسام مع العلم أن ابن بسام لم يذكر هذا الخبر في ذخيرته . (ينظر : النفح : ٣٤٧/١).

(١١) الحلة السيراء : ٢٣٩/١.

(١٢) (ينظر : الشنتريني / أبو الحسن علي بن بسام (٥٤٢هـ) ، الذخيرة في محاسن الجزيرة : تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٧م ، ق١م١ ص ٥٠.

الناصر بن المنصور بن أبي عامر ، حيث يذكر في رسالة له يمت فيها بتربيته في قصور بني أبي عامر وهو صغير[١٣]، ويعد أبو عامر ابن شهيد أعظم هذا البيت شهرة في البلاغة[١٤].

نشأته وسيرته :

مما لا شك فيه أن نسب ابن شهيد هذا وحسبه ، وتنشئته في بيئة حاكمة مترفة سوف يدفع بأن يعيش حياة مدللة تتفيأ ظلال هذه الشجرة الوارفة ، وتسقى من نهرها الفياض ، لكن الرياح جاءت بما لم يشته ابن شهيد ، حيث لم يدم له ذلك السرور ، فقد قلب له الدهر ظهر المجن ، ومني بخطوب جسام نغصت عليه سبل العيش ، فقد زال ملك بني أمية وبني عامر في قرطبة وبذلك انتهت سيادة قرطبة مركز الخلافة ، وسادت الفوضى وعم الفساد ، واستحالت الدولة إلى دويلات ، يحكمها الطوائف بمختلف مشاربهم وأعراقهم [١٥]، فكان طبيعياً أن تهز هذه الأحداث ابن شهيد بعمق وتصيبه في مقتل ، لأن ما خسره بسبب هذه الكارثة لم يكن بالأمر الهين ، فقد شهد عز أبيه في ظل العامريين وعز مكانته لديهم، وفتنه مجدهم وثراؤهم وقصورهم، منذ كان طفلاً صغيراً شديد الحساسية لذلك، فانطبعت في ذاكرته منذ الصغر ذكريات لم تنطمس من بعد، نلمس فيها الثورة على أبيه الذي زهد بالزعامة والقيادة التي رأى فيها الابن الثراء والظهور والسيادة في ذلك الدور المبكر من حياته [١٦] فقد تولد عن هذه الخطوب التي ألمت به سلوكيات تمازجت فيها مشاعر الحزن وعدم الرضوخ لهذا الواقع المر ، فعاش بعد ذلك حياة متقلبة مضطربة لا تستقر على حال ، وفي ذلك يقول ابن خاقان : "ودبت إلى أبي عامر بن شهيد أيام العلويين عقارب ، برئت بها منه أباعد وأقارب ، واجهه بها صرف قطوب انبرت منها خطوب " [١٧] .

وتولدت لدى ابن شهيد مشاعر الحقد والكراهية والروح الانتقامية على المجتمع الذي أسهم في وصوله إلى هذا المنقلب البغيض ، كما يعتقد ، فصب جام غضبه على معاصريه وغير معاصريه ، كما سنرى ذلك في حينه . ونتيجة لهذه الحالة السلوكية التي وصل إليها رأيناه لا يميز في مواقفه بين عدو أو حبيب ، فها هو ذا يمد يده لمن تسبب في سفك دماء المسلمين ويغريه بقتال إخوانه ويثني على

(١٣) ينظر : ابن سعيد / علي بن موسى بن عبد الملك (٦٨٥هـ) ، المغرب في حلى المغرب : تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٤ ، ١/٧٨ -٧٩.

(١٤) نفسه : ١/٧٨ .

(١٥) ينظر : النفح : ٢/١١٢. وفي ذلك يقول المقري : " ومن عجب ما يروى أنه في نصف نهار يوم الثلاثاء لأربع بقين من جمادى الآخرة إلى نصف نهار يوم الأربعاء فتحت قرطبة ، وهدمت الزهراء ،وخلع خليفة ، وهو المؤيد ، وولي خليفة وهو المهدي ،وزالت دولة بني عامر العظيمة ، ونكب خلق من الوزراء ، وولي الوزارة آخرون ،وكان ذلك كله على يد عشرة رجال فحامين ، وجزارين وزبالين ، وهم جند المهدي هذا "

(١٦) ينظر : إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، دار الثقافة ، بيروت ، ط ٦ ، ١٩٨١م ، ص ٢٧٢ .

(١٧) النفح : ٤/٣٢٢.

صنيعه فيهم من أجل إرضاء هواه وإشفاء غليله من المجتمع . ومن ذلك ما يرويه أبو مروان بن حيان صاحب كتاب " المتين " عن سيرته في قوله : " وكان أبو عامر بن شهيد قد اعتلق يومئذ بدولة هشام المعتد ، واختص بوزيره الحكم النذل ، المرتقي ذروة الوزارة من الحياكة ، وانخرط في سلك من كان يؤيد المعتد على تلك الهنات الموبقات ، ومن مأثور نظمه الشاهد بذلك ، قصيدته فيه ، وكانت من مكتوماته ، أنشدها هذا الخليفة يوم مهرجان العام المؤرخ ، إثر قتل عبد الرحمن بن الخياط الوزير ، يحسن له سطوته ، ويغريه بمن بقي من أصحابه ، وهي قصيدة ذميمة المعاني استهدف بها إلى سفك دماء المسلمين ، وجسر هشاماً على الفتك بالعالمين ، يقول فيها :

لا يرحم الرحمن مصرع مارق	عبثت بطاعته يد الأهواء
ألحق به إخوانه فحياتهم	نكد وقد أودى أخو السفهاء
من لم يفدك سوى الرماح فخله	للشمس يرقبها مع الحرباء
ودع القلانس في السحاب يشقها	ومفاخر الآباء للأبناء
إن الرجال إذا تأخر نفعهم	في كل معنى شبهوا بنساء
أنا صلهم عند الخصام فخلهم	للسان هذي الحية الرقشاء

في أبيات غير هذه ما أحسن فيها ولا أغرب ، بل أعرب عن سقم يقينه ورقة دينه "[١٨].

إذن فنحن إزاء عقدة تولدت في ابن شهيد نتيجة الظروف التي مرت به وهي عقدة الحقد والكراهية وما دار في فلكها ، ولولا الظروف التي ألمت بحياته بأخرة ما كان ليكون كذلك ، فهو ربيب النعم المدلل وسليل الحسب والنسب[١٩]. بل إن الصدمة التي حلت بابن شهيد قد أثرت على سلوكه العام وأتت على ما تبقى من أخلاقه السوية وأحالته عضواً فاسداً في مجتمعه ، فقد " كان بقرطبة في رقته وبراعته وظرفه خليعها المنهمك في بطالته ، وأعجب الناس تفاوتاً ما بين قوله وفعله ، وأحطهم في هوى نفسه ، وأهتكهم لعرضه ، وأجرأهم على خالقه "[٢٠].

فهذه التركيبة العجيبة، التي تشكلت من عوامل سياسية ، تمثلت في انهيار ملك عتيد توارثه عن آبائه وأجداده فكان نحساً عليه ، حيث انهار في عهده وأصبح من بعده ريشة في مهب الريح تتقاذفه الأهواء والأمزجة المتقلبة ، وأخرى اجتماعية ، أسفرت عن نتائج تغيرت فيها الموازين وانقلبت معها الحياة رأساً على عقب ، أصبح فيها الوضيع رفيعاً والرفيع وضيعاً ـ كما صرح بذلك هو في مواضع كثيرة من شعره ونثره ـ وأخرى نفسية ، تمثلت في هروبه من الواقع إلى حياة مليئة باللهو والعبث والمجون بعد أن اشتد عليه ضغط الواقع المر ، تجعلنا أمام شخصية اجتمعت فيها ثلاث حالات،

(١٨) الذخيرة : ق٣م١ ص ٥٢١.

(١٩) ينظر : محيي الدين ديب ، ديوان ابن شهيد الأندلسي ورسائله ، جمع وتحقيق وشرح ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٧م ، ص ٢٦– ٢٧.

(٢٠) الذخيرة : ق١م١ ، ص ٥٠ .

الأولى: شعور بالمجد والعظمة والسيادة – ما زال يستبد به – جعله يتحسر على ما ضاع منه. الثانية: كراهيته للمجتمع الذي أسهم في هذا المصير الذي آل إليه بشكل أو بآخر. الثالثة: عبثياته وعدم مبالاته بنتائج ما يصدر عنه من قول أو عمل.

مكانته الأدبية :

لا نريد هنا استقصاء الحديث عن مكانة ابن شهيد الأدبية فذلك أمر قد أشبع إن لم يكن قد قتل ، ولكن استيفاء للصورة التي نريد رسمها هنا لابن شهيد نود الإشارة إلى هذه المكانة من خلال أقوال المؤرخين والنقاد القدماء ليتضح أثر هذا الجانب في تكوين هذه الشخصية وتشكيلها على النحو الذي رأيناه فيها .

وأول ما يطالعنا ، من أقوال تتحدث عن الموقع الأدبي الذي كان يحتازه هذا الأديب، قول من المشرق للثعالبي يقول فيه : " نثره في غاية الملاحة ، ونظمه في غاية الفصاحة "[٢١]، وهذا الرأي له أهمية كبيرة؛ لأنه يأتي من جهة محايدة . أما الأقوال التي جاءت من المغرب فهي كثيرة ، ونستهل بعضها بقول ابن حيان : " كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام ، وإذا تأملته ولسنه ، وكيف يجر في البلاغة رسنه ، قلت عبد الحميد في أوانه ، والجاحظ في زمانه ، والعجب منه أنه كان يدعو قريحته إلى ما شاء من نثره ونظمه ، في بديهته ورويته ، فيقول الكلام كما يريد من غير اقتناء للكتب ، ولا اعتناء بالطلب ، ولا رسوخ في الأدب فإنه لم يوجد له ـ رحمه اللّه ـ فيما بلغني ـ بعد موته ، كتاب يستعين به على صناعته ويشحذ من طبعه إلا ما لا قدر له ، فزاد ذلك من عجائبه ، وإعجاز بدائعه ، وكان في تنميق الهزل والنادرة اقدر منه على سائر ذلك، وشعره حسن عند أهل النقد ، تصرف فيه تصرف المطبوعين ، فلم يقصر عن غايتهم "[٢٢]، ويقول ابن بسام : " وقد ضارع أبو عامر هذا محاسن الطبقة العالية البغدادية ، المضارعة التي بانت فيها قوته ، ولدنت اختراعاته ومقدرته ، فصار يتناول المعنى الحسن فيصير محساً بحسن مساقه "[٢٣]، و يصفه المقري بقوله : " عالم بأقسام البلاغة ومعانيها ، حائز قصب السبق فيها ، لا يشبهه أحد من أهل زمانه ، ولا ينسق ما نسق من درر البيان وجمانه ، توغل في شعاب البلاغة وطرقها ، وأخذ على متعاطيها ما بين مغربها ومشرقها ، لا يقاومه عمر بن بحر ، ولا نراه يغرف إلا من بحر ، مع انطباع ، مشى في طريقه بأمد باع، وله الحسب المشهور "[٢٤]، ويذكره صديقه ابن حزم مفاخراً به فيقول : " ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شهيد صديقنا

---

(٢١) الثعالبي / أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (٤٢٩هـ) ، يتيمة الدهر : تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية، ١٩٧٩م ، ٢/ ٤٩ .

(٢٢) الذخيرة : ق١م١ ص١٩٢.

(٢٣) نفسه : ق١م١ ص٢١٩.

(٢٤) النفح : ٢/ ١٥٤.

وصاحبنا ، وهو حي بعد لم يعد سن الاكتهال ، وله التصرف في وجوه البلاغة وشعابها مقدار يكاد ينطق فيه بلسان مركب من لساني عمرو وسهل "[٢٥].

وفي كل ذلك ما يدل على أن ابن شهيد كان موهوباً بالشعر ضليعاً بالأدب عالماً بفنونه وعلومه ، ومن يطلع على أخباره وآثاره سيقطع بصحة هذه الأقوال .

فنحن إذاً أمام عبقرية مشهود لها بالتفوق والإبجاز الأدبي المتفرد ، لكن هذه العبقرية ، بسبب سوء طالع صاحبها ، اغتيلت في كبريائها وسؤددها ، وتجهمت لها الأيام بعد ما ضحكت لها كثيراً ، واستوحشت لها بعد كثرة إيناس ، فراح صاحبها بعدئذ يبحث عن مجتمع غير مجتمعه وأناس غير أناسه يعرض عليهم مجده الأدبي بعد أن فقد مجده السياسي والاجتماعي ، فلعله يجد آذاناً صاغية تقدر له تلك الموهبة وتحترم فيه تلك المكانة ، فكانت رحلته الخيالية التي قام بها إلى ذلك العالم الغيبي عالم الجن ، وتفاصيل تلك الرحلة تحكيها رسالته الشهيرة الموسومة ب التوابع والزوابع " ، وهي جزء متميز من إنتاجه الفكري والأدبي .

والسؤال الذي يثيره هذا البحث هو : هل قدم ابن شهيد شخصيته وإبداعه بالشكل الطبيعي الذي نعرفه عند غيره من المبدعين والمتميزين عبر التاريخ ؟ أو كان الأمر على خلاف ذلك ؟ حيث لوحظ أن الخاصية المهيمنة على أدب ابن شهيد وآرائه النقدية الحضور الصارخ والمكشوف للأنا ، فما الداعي لهذا الحضور المكثف ؟ هذا ما سوف يكشف عنه هذا البحث ، إن شاء الله .

مظاهر النرجسية عند ابن شهيد:

إذا كانت النرجسية – كما رأينا – تعني حب الذات وتقديسها والاعتداد بالنفس والزهو بها فإن ابن شهيد قد غرق فيها حتى النخاع ، بحيث تجعله في مصاف النرجسيين ومقدميهم ، ولعل إطلالة متأنية متعمقة في آثاره الأدبية وآرائه النقدية وحديثه الكثير عن نفسه كفيلة بأن يخرج صاحبها بهذه النتيجة .

وفي الحقيقة هناك تداخل كبير بين حديثه عن نفسه وشخصيته المتمثلة في الأشجعية ، وحديثه عن عراقته في الكلام وفي شاعريته ومواهبه الأدبية ونظرته الاستعلائية تجاه مجتمعه ولغة التحقير للآخرين والسخرية منهم ..... ولكنا سنحاول فك هذا التداخل بشكل يسمح بعرض كل حالة على حدة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

اعتداده بشخصه ونسبه :

يقول ابن شهيد مفتخراً بأشجعيته :

وما هي إلا همة أشجعية ونفس أبت لي في طلاب الأراذل [٢٦]

---

(٢٥) نفسه : ١٥٦/٤.

(٢٦) ديوان : ص ١١٢ .

ويقول في موضع آخر :

همـــة في السمـاء تسحب ذيلا ... من ذيول العـــلا وجـــد ركابي
من شهيد في سر هاشـــم مـن ... أ شجع في السر من لباب اللبـاب
خطبـــاء الأنـام إن عن خطب ... وأعـاريب في متـــون عـراب
وفتى أرهفت ظبـــاه المعـــالي ... فتنتـه بالبـاتـر القرضـاب[٢٧]

ويقول :

وكأنما طرق المجـرة منهـج ... للعامـــرية ضـامن فينانهـا
المعجلين عـــداتهـــم برماحهـم ... والجاعلين الهـــام من تيجانهـا
أنا طـودها الراسي إذا مـا زلزلت ... أيدي الحـوادث من فؤادجبانهـا
والنفس نفس من شهيـــد سنخها ... سنخ غدت منه العـلا بلبانهـا
ما احول نـحوي لحظ مقلة سـاخط ... إلا وضعت السهـــم في إنسانها
وقضت بعز النفس مني دوحـــة ... من عامر أصبحت من أغصانها[٢٨]

فنلاحظ أنه يمدح بني عامر لكنه يضع نفسه في قمة هـذه الأسـرة ، وثنـاؤه علـى نفسـه في هـذه الأبيات أكثر من ثنائه على ممدوحيه ، وهي سمة بارزة في معظم مدائحه كما سنرى ، وهو بذلك يذكرنا بالمتنبي الذي يجعل نفسه أفضل من ممدوحه في غير قصيدة مدحية ، بل إن ابن شـهيد قـد أكـد علـى الصفات التي تجمعه بالمتنبي وتجعله معه في ندية كاملة ، فهـو حـين راح يعـارض المشـارقة لم يقـف كثيراً مع شاعر منهم قدر وقوفه مع المتنبي ، حيث قدم بين يديه كثيراً مـن الأشـعار المفعمـة بـالفخر والاعتداد بالنفس والصفات التي طالما رأيناها عند المتنبي في أشعاره التي راح ابن شهيد بدوره يخلعهـا على نفسه ، فإذا كان المتنبي قد قال :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا ... بأنني خير من تسعى بـه قـــدم

فإن ابن شهيد يقول :

ولم أر مثلي ما له من معاصر ... ولا كمضائي مـا له من مضافـر
ولو كان لي في الجو كسر أؤمه ... ركبت إليه ظهر فتخـــاء كاسـر
ودون اعتزامي هضبة كسروية ... من الحزم سلمانيـــة في المكاسر[٢٩]

(٢٧) نفسه : ص ٥٧ .
(٢٨) نفسه : ص ١٣٥ .
(٢٩) الديوان : ص ٧٩ .

وهذه الأبيات جزء من قصيدة قالها ممتدحاً صديقه ابن حزم ، لكن طغيان زهوه بنفسه وحديثه عنها غير المملول لديه جعله يترنم بها في كل حين ، فإذا انتهى من ذلك يعرج على ممدوحه بشيء يرضيه به، فيقول :

وأنت ابن حزم منعش من عثارها إذا ما شرفنا بالجدود الغوائر [٣٠]

ومن هذا القبيل نراه يمدح بني مروان بقصيدة ويعاتبهم فيها ، كما فعل المتنبي مع سيف الدولة حين غادره إلى مصر مشيراً إلى الفراغ الذي سيتركه بعد رحيله في بلاط ممدوحه وسيجعل القوم يندمون على فراقه وذلك في قوله:

لئن تركنا ضميراً عن ميامننا ليحدثن لمن ودعتهم ندم [٣١]

فيقول ابن شهيد كلاماً شبيهاً به :

تخونتني رجال طالما شكرت عهدي فأثنت بما راعيت من ذمم
لئن وردت سهيلاً غب ثالثة لتقرعن علي السن من ندم
هناك لا تبتغي غير السناء يدي ولا تخف إلى غير العلا قدمي [٣٢]

ويمدح ممدوحاً له ، ولكنه قبل ذلك يقول عن نفسه :

أنا البحر لا يستوهن الخطب طاقتي وتأبى الحسان أن أطيق لقاءها

ثم يتحدث عن ممدوحه فيقول :

جزاهم بما جازوا من الجهل حلمه كريم إذا رأي المكارم جادها [٣٣]

ويظهر استخفافه ببني البشر واستهانته بكل ما سواه واضحا في قوله :

ورأيت الدهر خوفي ساكنا وبني الأحرار حولي أعبدا [٣٤]

ولا ينسى نفسه حتى في مراثيه فنجده يتحدث عنها أكثر مما يتحدث عمن يرثيه، ففي إحداها يقول:

رميت بها الآفاق عني غريبة نتيجة خفاق الضلوع كظيم
لأبدي إلى أهل الحجى من بواطني وأدلي بعذر في ظواهر لوم
أنا السيف لم تنعت به كف ضارب صروم إذا صادفت كف صروم
سعيت بأحرار الرجال فخانني رجال ولم أنجد بجد عظيم [٣٥]

---

(٣٠) نفسها .

(٣١) ابي البقاء العكبري (ت ٦١٦هـ) ، ديوان ابي الطيب المتنبي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٨م ، ٣٧٢/٢.

(٣٢) ديوان ابن شهيد : ص ١٢٢.

(٣٣.) نفسه : ص ٤٧

(٣٤) نفسه : ص ٦٧.

فأين من يرثيه في هذه الأبيات سوى فخره بنفسه وتحسره على قوم ضيعوه ، وكأن لسان حاله يقول :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

وبعد أن ينتهي من سرد هذه القصيدة يذكر أن أبا تمام حين سمعها منه أثنى عليه بقوله : " ما أنت إلا محسن على إساءة زمانك "[٣٦].

ولم ينس الحديث عن نفسه حتى وهو على فراش المرض والموت ، فنراه يدعو رفاق حياته ويتوسل إليهم بأن يكثروا من تأبينه بعد موته ويذكروا له مآثره ومحاسنه ، فذلك شيء سيكون راحة له وسلواناً بعد وفاته ، كما نرى ذلك في قوله :

سقى الله فتياناً كأن وجوههم وجوه مصابيح النجوم الزواهر
إذا ذكروني والثرى فوق أعظمي بكوا بعيون كالسحاب المواطر
يقولون : قد أودى أبو عامر العلا أقلوا فقدماً مات آباء عامر[٣٧]

ويقول في موضع آخر :

ولما رأيت العيش ولى برأسه وأيقنت أن الموت لا شك لا حقي
تمنيت أني ساكن في غيابة بأعلى مهب الريح في رأس شاهق
فمن مبلغ عني ابن حزم وكان لي يداً في ملماتي وعند مضايقي
عليك سلام الله إني مفارق وحسبك زاداً من حبيب مفارق
فلا تنس تأبيني إذا ما فقدتني وتذكار أيامي وفضل خلائقي
فلي في ادكاري بعد موتي راحة فلا تمنعونيها علالة زاهق [٣٨]

وفي موضع آخر يقول :

أظل قعيد الدار تجنبني العصا على ضعف ساق أوهن السقم رجلها
وأنعي خسيسات ابن آدم عاملاً براحة طفل أحكم الضر نصلها
ألا رب خصم قد كفيت ، وكربة كشفت ، ودار كنت في المحل وبلها[٣٩]

(٣٥) ديوان ابن شهيد : ص ١٢٠ .
(٣٦) الذخيرة : ق١م١ ص٢٥٦ .
(٣٧) الديوان : ص ٨١ .
(٣٨) نفسه : ص ١٠١.)
(٣٩) نفسه : ص ١١٠.

ثناؤه على أعماله الأدبية :

لا شك أن الإعجاب بالنفس يولد إعجاباً بكل ما يصدر عنها ، فالعظيم لا يصدر عنه إلا كل عظيم ، وعلى قدر العظيم تأتي العظائم ، كما يقول المتنبي. وثناء ابن شهيد على إبداعه الأدبي وإشادته بمواهبه الأدبية يأتي انطلاقاً من هذا التصور .

لم يكن ابن شهيد شاعراً وناثراً فحسب ، بل كان ناقداً ومنظراً للأدب أيضاً [٤٠]، وهذا أمر لا شأن لنا به في بحثنا هذا ، ولكن ما يعنينا أن ابن شهيد لم يترك للآخرين أن يثبتوا له هذه المكانة التي يتميز بها ، فيأتي الثناءعليه بها من قبلهم ، ولكنه راح يثبتها لنفسه ويؤكد عليها في كل محفل ، بل ويرى نفسه أنه الوحيد الذي يتقن أدوات الأدب دون سواه ، وفق شروطه وقوانينه، وراح ينتقص من أدباء عصره غير معترف لهم بشيء من ذلك غير القليل منهم ، وراح يجردهم من كل حسن ويسمهم بالبلادة والغباء ، ويسخر منهم في كل محفل ، ويجعل من نفسه الخصم والحكم ، ولا فرق عنده بين المعاصرين وغير المعاصرين ، كما سنرى ، فهو وحيد عصره وفريد دهره .

وشهادات الإعجاب التي انتزعها من كبار الشعراء والكتاب المشارقة بالتميز والتفوق تصب في هذا الاتجاه ، فقد رأيناه يحاورهم ويلقي بين أيديهم شعراً أو نثراً ثم يذيل ذلك برأي يصوغه على ألسنتهم يصب في هذا الإعجاب وهذا الزهو والاعتداد بالنفس وبالموهبة الأدبية التي يجدها لديه ، فعبد الحميد الكاتب يقول له بعد أن سمع منه ما سمع : " إنك لخطيب ، وحائك للكلام مجيد " ، و " إن لسجعك موضعاً من القلب ، ومكاناً من النفس ، وقد أعرته من طبعك وحلاوة لفظك ، وملاحة سوقك ، ما أزال أفنه ورفع غبنه "[٤١].

وأما الجاحظ فقد وصفه بقوله : " اذهب فإنك شاعر خطيب "[٤٢]، وهي صفة قلما يتصف بها أديب ، أما أبو نواس فقد قال له بعد أن استمع إلى ما قاله من شعر : "هذا والله شيء لم نلهمه نحن "[٤٣]، وأما البحتري فقد ضاق ذرعاً بما سمع منه من آيات الشعر التي أبهرته وولى عنه غاضباً [٤٤] .

ولكي يثبت عراقته في الكلام وموهبته في البيان ، وهي صفة ظل يوقع على قيثارتها ، ويجلب لها بخيله ورجله ، راح يذكر أشعاراً لأبيه وأخيه وعمه وجده وجد جده ، وبعد أن يستمع إليها محاوره يقول: " والذي نفس فرعون بيده ، لا عرضت لك أبداً إني أراك عريقاً في الكلام "[٤٥].

---

(٤٠) ينظر : أحمد هيكل ، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ١٢ ، ١٩٩٧م ، ص ٣٩٠ .

(٤١) الذخيرة : ق١م١ ، ص ٢٧٢ .

(٤٢) نفسها .

(٤٣) الذخيرة : ق١م١ ، ص ٢٦٤ .

(٤٤) نفسه : ق١م١ ، ص ٢٥٨.

(٤٥) ق١م١ ، ص ٢٩٦ .

ويعزو كثيراً من متاعبه ومشكلاته مع قومه إلى هذا النبوغ المتميز الذي أثار عليه الحساد وفاقم حوله العداء ، حيث يقول : " وحربنا أنا طلبنا البيان فأدركناه بكل لسان ، والتمسنا الإبداع فأثبتنا كل معجب ، وأتينا على كل مطرب"(٤٦).

فقد يقول قائل : إن الحسد داء قد يصيب ضعاف النفوس إزاء من أوتوا بسطة في علم أو في مال أو في جسم، وهو كلام قد يقوله كل الناس، فما وجه الغرابة إن كان صادراً عن ابن شهيد وهو واحد من الناس؟ فنقول إنا لا نستغرب منه ذلك لو كان ساقه سياقاً طبيعياً، كأي خبر يخبر به، ولكن ابن شهيد قد ساقه سياق المفاخر، وتحدث به عن عجب، ويؤكد على أن ما يصدر عنه موهبة ومنحة من الله، يختص بها من يشاء من عباده، وليست ناجمة من شعر يفسر، ولا أرض تكسر، وإنما هو من تعليم الله حيث قال:﴿الرحمن، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ﴾ . (٤٧)وقد أورد هذا الكلام رادا به على خصمه ابن الإفليلي الذي يعتمد على كثرة ما يقرأ ويحفظ ويلقن من قبل المؤدبين . حتى دعا ابن شهيد إلى أن يناظره في كتاب الخليل فرد عليه بقوله : هو عندي في زنبيل . فقال له ناظرني على كتاب سيبويه ، فقال : خربت الهرة عندي عليه وعلى شرح ابن درستويه(٤٨).

ويؤكد على هذه المنحة الربانية ويتباهى بها بين أقرانه في أكثر من موضع حيث يورد قوله على لسان محاور له : " ثكلتك المكارم يا ابن الأكارم ! صدرك حكمة ، وللرزق في حجرك نعمة ، تقول بهذه فتسمع ، وتغنى بتلك فلا تخضع ".

ويصرح شعراً بذلك التميز الذي كان السبب في نقمة الناس عليه وأذاهم له ، فيقول :

أرى أعيناً ترنو إلي كأنها ... تساور منها جانبي أراقم
أدور فلا أعتام غي محارب ... وأسعى فلا ألقى امرأً لي يسالم
ويجلب لي فهمي ضروباً من الأذى ... وأشقى امرئ في قرية الجهل عالم(٤٩)

ويقول في موضع آخر متباهياً بشعره ومتحدثاً عن معاناته مع قومه للسبب ذاته غير مكترث بما يصدر عنهم :

وبلغت أقواماً تجيش صدورهم ... علي ، وإني منهم فارغ الصدر
أصاخوا إلى قولي فأسمعت معجزاً ... وغاصوا على سري فأعياهم أمري
فقال فريق : ليس ذا الشعر شعره ... وقال فريق : أين الله ما ندري
أما علموا أني إلى العلم طامح ... وأني الذي سبقاً على عرقه يجري؟(٥٠)

---

(٤٦) ق١م١ ، ص ٢٦٣ .

(٤٧) ق١م١ ، ص ٢٧٤ .

(٤٨) ق١م١ ، ص ٢٣٠ .

(٤٩) الديوان : ص ١١٧ .

وعندما يتحدث عن البديهة والارتجال في الشعر نراه يجعلها معياراً نقدياً للحكم على الأديب بالتميز والتفوق أو القصور والضعف ، فيقول: "وإنما يتبين تقصير المقصر ، وفضل السابق المبرز ،إذا اصطكت الركب وازدحمت الحلق ، واستعجل المقال ، ولم توجد فسحة لفكرة، ولا أمكنت نظرة لروية"(٥١).

وهذا الكلام لا غبار عليه فهو رأي نقدي من ناقد ، ولكن الأمر عند ابن شهيد لم يكن مجرد تنظير وإبداء رأي في قضية نقدية فحسب ، وإنما استعراض لموهبة واستظهار لقدرة ،ودليل ذلك هذه الحكاية التي يرويها ابن شهيد ويقول فيها : " لما قدم زهير الصقلبي فتى بني عامر مقرة قرطبة من المرية ، وجه أبو جعفر ابن عباس وزيره عن لمة من أصحابنا منهم ابن برد ، وأبو بكر المرواني وابن الحناط والطبني ، فسألهم عني، وقال : وجهوا عنه ، فوافاني رسوله على دابة له سرج محلى ثقيل ، فسرت إليه ودخلت المجلس ، وأبو جعفر على دابة له سرج محلى ثقيل ، فسرت إليه ودخلت المجلس ، وأبو جعفر غائب فتحرك المجلس لدخولي وقاموا جميعاً إلي ، حتى طلع أبو جعفر علينا ساحباً لذيل لم ير أحد سحبه قبله ، وهو يترنم ، فسلمت عليه سلام من يعرف حق الرجال ، فرد رداً لطيفاً ، فعلمت أن في أنفه نعرة لا تخرج إلا بسعوط الكلام ، ولا تروض إلا بمستحصد النظام ، فرأيت أصحابي يصيخون إلى ترنمه فسألتهم عن ذلك ، فقال لي الحناطي ، وكان كثير الإنحاء علي ، جالباً في المحافل ما يسوء الأولياء إلي : إن الوزير حضره قسيم من شعره ، وهو يسألنا إجازته ، فعلمت أني المراد ، فاستنشدته فأنشده ، وهو : " **مرض الجفون ولثغة في المنطق** "

فقلت لمن حضر: لا تجهدوا أنفسكم فلستم المراد ، فأخذت القلم وكتبت بديهة :

مرض الجفون ولثغة في المنطق	سيان جرا عشق من لم يعشق
من لي بألثغ لا يزال حديثه	يذكي على الأكباد جمرة محرق
ينبي فينبو في الكلام لسانه	فكأنه من خمر عينيه سقي
لا ينعش الألفاظ من عثراتها	ولو انها كتبت له في مهرق"(٥٢)

فابن شهيد قد روى هذا الكلام عن نفسه في سياق حديثه الدائم عن مواهبه ومكانته الأدبية ، ولو صدر هذا الثناء عليه من غيره لما كان هناك أي وجه للغرابة ، فابن شهيد قد دأب على الحديث عن نفسه وعن مواهبه الأدبية من غير أن يمل ، ولم يكن ما يحكيه عن مواهبه أمراً عفوياً ، بل قد شكل لديه ظاهرة ، جعلنا نلتفت إليها ونرصد أبعادها في هذا البحث .

---

(٥٠) الديوان ص ٧٨ .

(٥١) الذخيرة : ق١م١ ، ص ٢٤٤ .

(٥٢) الديوان : ص ١٠٤.

ولنستمع إلى حكاية أخرى يقول لنا فيها : إنه أبو البيان وصاحب السحر الحلال ، وإنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، حيث نراه ينظر لقضية نقدية تعرف في عصرنا بالوحدة الموضوعية ، ثم يضع النموذج أو المثال المطلق (قواعدها) بعد أن يفند ما صدر عمن سواه ، فيقول : " ومما يلزم المدعي لصناعة الكلام إذا اعتمد وصف حالة أن يستوفي جميعها ، ويكون ما يطلبه من الإبداع والاختراع فيها غير خارج عنها وما هو بسبيلها ، فذلك أبهى لكلامه ، وأفخم للمتكلم به ، وأدل على أن الكلام له ومن تأليفه ، لا كما شهدته يوماً عند ابن حمود وقد صدر عن ابن الشرب ، وقد مدحه عدة شعراء صدور أشعارهم لزينب والرباب وليس وفرتنى ، وأعجازها للجود والكرم وبذل اللهى.

ولم يلمم أحد منهم بذلك الغرض والمغزى إلا في بيت أو ثلاثة ، فأنشدته أنا يومئذ من جملة قصيدة أولها :

فريق العدا من حد عزمك يفرق ... وبالدهر مما خاف بطشك أولق
عجبت لمن يعتد دونك جنة ... وسهمك سعد والقضاء مفوق[٥٣]
ومن يبتني بيتاً ليقطع دونه ... ممر رياح النصر فهو الخورنق[٥٤]
وما شرب ابن الشرب قبلك خمرة ... من الذل بالعجز الصريح يصفق"[٥٥]

وابن شهيد بهذا الكلام يتناقض مع نفسه في موضع آخر حيث يؤكد هناك أن النسيب تقليد متبع لدى الشعراء عند مدحهم الملوك ، ودافع عن قصائده المدحية التي بدأها بنسيب ، ورد على المعترض عليه بقوله : " فإن طعن طاعن على نسيب هذا الشعر ، وقال: إن الملوك لا تقابل بمثله ، والعظماء لا تتلقى بشبهه ، قلنا : ذلك لجهله بأخبارهم وقلة روايته لآثارهم ، ولو شئت أن أملأ الصحف وأرقم القراطيس بما جرى عند الملوك ومعهم ، وما استعمل لهم ، وتوصل به إليهم ، لفعلت ، ولكني اقتصرت من ذلك على قريب معجب ، واكتفيت منه بحديث مطرب "[٥٦].

فابن شهيد يمدح هنا ما يذم هناك ، وليس لشيء سوى أن ما يصدر عنه معجب مطرب ، وما يصدر عن غيره قبيح مستهجن.

ونراه في موضع آخر يشير إلى الصفات التي يجب توافرها في الشاعر الفحل والأديب المستحق لها ، فيقول : " وإنما يستحق اسم الصناعة بتقحم بحور البيان ، وتعمد كرائم المعاني والكلام ، وأن ينطق بالفصل ويركب أثباج الجد ، ويطلب النادرة والسائرة ، وينظم من الحكم ما يبقى بعد موته ، ويذكر بعد فوته ، ويتصرف تصرف الملح ، ويتلون تلون أبي براقش " .

---

(٥٣) صائب في تسديده ، مادة (فوق) .

(٥٤) الخورنق : قصر كان للنعمان الأكبر بالعراق ، مادة (خرنق) .

(٥٥) الديوان : ص ٩٧ .

(٥٦) نفسه : ق١م١ ، ص ٢١٠ .

وهذا كلام جميل ورأي يحترم لابن شهيد ويقدر . ولكن ابن شهيد كعادته يأبى إلا أن يطل علينا من برجه العاجي مزهواً بنفسه مغروراً بما يأتي منها . ليقول بعد تعداد تلك الصفات : ونحن نرجو أنا ذهبنا بقولنا هذا مذهباً كريماً من الكلام :

ولما رأيت الليل عسكر قره ... وهبت له ريحان تلتمطان
وعمم صلع الهضب من قطر ثلجه ... يدان من الصنبر تبتدران
رفعت لساري الليل ناري فارتأى ... شعاعين تحت النجم يلتقيان
فأقبل مقرور الحشا لم تكن له ... بدفع صروف النائبات يدان
فقلت : إلى ذات الدخان . فقال لي: ... وهل عرفت نار بغير دخان
فملت به اجتره نحو جمرة ... لها بارق للضيف غير يمان
إذا ما حسا ألقمته كل فلذة ... لفرخة طير أو لسلخة ضان
فما زال في أكل وشرب مدارك ... إلى أن تشهى الترك شهوة واني
وما انفك معشوق الثواء نمده ... ببشر وترحيب وبسط لسان
تغنيه أطيار القيان إذا انتشى ... بصنج وكيثار وعود كران
ويسمو دخان المندل الرطب فوقه ... كما احتملت ريح متون عتان
إلى أن تشهى البين من ذات نفسه ... وحن إلى الأهلين حنة حاني
فأتبعته ما سد خلة حاله ... وأتبعني ذكراً بكل مكان "(٥٧)

وقد تعمدت إيراد الأبيات كاملة في هذا الموضع وغيره من المواضع الأخرى ؛ ليتأمل القاريء هذا الشعر الذي يورده ابن شهيد إثر كل كلام يصفه به . يجعل القارئ يتشوق إلى معرفته . ويتطلع إلى الوقوف عليه؛ ليحكم على ابن شهيد بالسلب أو الإيجاب .

وعندما ذهب يعارض المشارقة لم تكن معارضاته لهم محاولة منه محاكاة نماذج مشرقية فحسب . بل راح يزري بتلك النماذج ويبين أنه كان أحذق بالشعر من المشارقة المشهورين في هذا الميدان. وهناك أمثلة كثيرة نختار منها هذا المثال . حيث يعقد مجلساً أدبياً متخيلاً يستعرض فيه أقوال الشعراء في أحد الموضوعات التي تعاوروها فيما بينهم ويبدأ بأقدمهم . وهو الأفوه . حيث يقول :

وترى الطير على آثارنا ... رأي عين ثقة أن ستمار

ثم يورد قول النابغة :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم ... عصائب طير تهتدي بعصائب
تراهن خلف القوم خزراً عيونها ... جلوس الشيوخ في ثياب المراتب
جوانح قد أيقن أن قبيله ... إذا ما التقى الجيشان أول غالب

(٥٧) الديوان ص ١٣٣.

ويورد قول أبي نواس :

تتأبى الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره

وقول أبي تمام :

وقد ظللت عقبان أعلامه ضحى بعقبان طير في الدماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تقاتل

ثم يعلق على تلك الأقوال بقوله : " كلهم قصر عن النابغة ، لأنه زاد في المعنى ، ودل على أن الطير إنما أكلت أعداء الممدوح ، وكلامهم كلهم مشترك يحتمل أن يكون ضد ما نواه الشاعر ، وإن كان أبو تمام قد زاد في المعنى ، وإنما المحسن المتخلص المتنبي ، حيث يقول :

له عسكرا طير وخيل إذا رمى بها عسكراً لم تبق إلا جماجمه

ولكن ما تسأل الطير إذا شبعت أي القبيلين الغالب ، وأما الطير الآخر فلا أدري لأي معنى عافت الطير الجماجم دون عظام السوق والأذرع والفقارات والعصاعص ، ولكن الذي خلص هذا المعنى كله ، وزاد فيه ، وأحسن التركيب ، ودل بلفظة واحدة على ما دل عليه شعر النابغة وبيت المتنبي ، من أن القتلى التي أكلتها الطير أعداء الممدوح ، فاتك بن الصقب في قوله :

وتدري سباع الطير أن كماته إذا لقيت صيد الكماة سباع
لهن لعاب في الهواء وهزة إذا جد بين الدارعين قراع
تطير جياعاً فوقه وتردها ظباه إلى الأوكار وهي شباع
تملك بالإحسان ربقة رقها فهن رقيق يشترى ويباع
وألحم من أفراخها فهي طوعه لدى كل حرب والملوك تطاع
تماصع جرحاها فيجهز نقرها عليهم وللطير العتاق مصاع"(٥٨)

ويقصد ابن شهيد بفاتك بن الصقب نفسه .

وهناك كثير من الأمثلة تعز على الحصر رأينا ابن شهيد يعظم فيها من قدراته ويستعرض بها مواهبه، ويستخدم فيها ضمير المتكلم تارة وضمير المتكلمين تارة أخرى ، وفي كل ذلك يريد أن يلفت أنظارنا إلى شخصيته (المعجزة) المتميزة التي لا ثاني لها .

لغة السخرية والانتقاص من الآخرين :

إن لغة الانتقاص من الآخرين والنظرة الدونية إليهم والزهو بالقدرات الذاتية تكاد تكون ظاهرة متجذرة في شخصية ابن شهيد ومستحوذة عليها ،

(٥٨) الذخيرة : ق١م١ ، ص ٢٨٤.

ولنستمع إلى هذه الأبيات بداية :

هوت أنجم العلياء إلا أقلها ... وغبن بما يحظى به كل عاقل
وأصبحت في خلف إذا ما لمحتهم ... تبينت أن الجهل إحدى الفضائل
أرى حمراً فوق الصواهل جمة ... فأبكي بعيني ذل تلك الصواهل
وربت كتاب إذا قيل : زوروا ... بكت في تأنيهم صدور الرسائل
وناقل فقه لم ير الله قلبه ... يظن بأن الدين حفظ المسائل
وحامل رمح راح فوق مضائه ... به كاعباً في الحي ذات معازل

والكلام حتى هذا الموضع لا غبار عليه ، لأنه وصف لأوضاع كانت سائدة ، اغتم منها ابن شهيد كما هو الحال مع بقية الشعراء الذين قالوا كلاماً شبيها بهذا عبر التاريخ ، مثل المعري وابن دراج القسطلي ، ومن قبلهما المتنبي وغيرهم ، ولكن ابن شهيد بعد أن يعري الآخرين من كل فضيلة يروح يلصق الفضائل كلها بشخصه ،

ويقول :

وما هي إلا همة أشجعية ... ونفس أبت لي في طلاب الأراذل
وفهم لو البرجيس طفت بجده ... إذا لتلقاني بنحس المقاتل[٥٩]
ولما طما بحر البيان بفكرتي ... وأغرق قرن الشمس بعض جداولي
رحلت إلى خير الورى كل حرة ... من المدح لم تحمل برعي الخمائل
وكدت بفضل القول أبلغ ساكتاً ... وإن ساء حسادي مدى كل قائل

وبعد أن ينتهي من هذه القصيدة التي قالها بين يدي المتنبي متخيلاً ، يختمها بشهادة ثناء ثمينة من المتنبي يقول فيها : " إن امتد به طلق العمر ، فلابد أن ينفث بدرر ، وما أراه إلا سيحتضر بين قرحة كالجمر ، وهمة تضع أخمصه على مفرق البدر "[٦٠].

ولغة السخرية وما شابهها من مفردات ، وإن كان قد أورد بعضها على سبيل التفكه والتندر والهزل ، لم تقتصر على شخص دون شخص ولا على جهة دون جهة أو عصر دون عصر ، بل طالت الأقارب والأباعد المعاصرين وغير المعاصرين ، وهذا السلوك لا يمكن أن يفسر إلا في إطار السلوك العام عند ابن شهيد الذي وصفناه بالنرجسية والنظرة الاستعلائية . فقد رأيناه يصف أهل بلده بالغباوة والبلادة والعجمة واللكن ، ويمعن في تسفيه عقولهم واحتقار آثارهم ، فيقول : " ولكني عدمت ببلدي فرسان الكلام ، ودهيت بغباوة أهل الزمان " ، ويشبههم بلحاء الشجر ، وكلامهم " ليس لسيبويه فيه

(٥٩) الديوان : ص ١١١.
(٦٠) الذخيرة : ق١م١ ، ص ٢٦٦ .

عمل ، ولا للفراهيدي إليه طريق ، ولا للبيان عليه سمة ، إنما لكنة أعجمية يؤدون بها المعاني تأدية المجوس والنبط "[٦١].

ويشبه بعظهم بالبهايم والقرود والبعران والحمير والإوز ، ومن ذلك قوله :

وإليكها من ناطق ... يدعوك إذ سكت البهائم
وحشوات فينا الذنابى ... الرأس وابن المجد راغم
وأدار كل صغير قدر ... المنتهى أرخى العمائم [٦٢]

ويخص طائفة من قومه هي المعلمون والمؤدبون ببعض من الأوصاف السابقة ، فيقول : " وقوم من المعلمين بقرطبتنا ممن أتى على أجزاء من النحو ، وحفظ كلمات من اللغة ، يحنون على أكباد غليظة ، وقلوب كقلوب البعران ، ويرجعون إلى فطن حمئة ، وأذهان صدئة لا منفذ لها في شعاع الرقة، ولا مدب لها في أنوار البيان ، سقطت إليهم كتب في البديع والنقد فهموا منها ما يفهمه القرد اليماني من الرقص على الإيقاع والزمر على الألحان "[٦٣] .

وفي توابعه وزوابعه كثير من الأمثلة ، يضيق بها البحث تناول فيها معاصريه بلغة أشد وأنكي من هذه اللغة، أما غير معاصريه ممن استخف بجهودهم فيأتي في مقدمتهم عبد الحميد (الكاتب الأموي) ، فقد كناه بداية بأبي هبيرة ، والهبيرة هو الضبع ، ويرمز به للعجز والجبن والقصور ، فهذه الكنية ذات دلالة مستهجنة ، يحقر بها من شأن كاتب كبير ، وقد قيل : " بدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد " . ويعلق ابن شهيد على كلام سمعه منه بقوله : " أحماراً رميت أم إنساناً ، وقعقعة طلبت أم بيانا ؟ وأبيك إن البيان لصعب وإنك منه لفي عباءة تتكشف عنها أستاه معانيك ، تكشف است العنز عن ذنبها "[٦٤].

ولم ينج منه البحتري في الشعراء، فقد وصف حالته، بعد أن سمع البحتري ما سمع منه، بأنه تضجر وامتعض من عظيم ما سمع من ابن شهيد، واستحال وجهه كقطع الليل، وولى هارباً ولم يعقب[٦٥].

والويل لمن يحاول التعريض بأدبه أو اتهامه فيه ، لأنه فوق الشبهات ، وإذا تجرأ أحدهم على ذلك فإنه يحمل عليه حملة لا هوادة فيها ، ومن ذلك أن أبا بكر المعروف باشكمياط كان قد وصف أدبه بقوله : " فقر حسان إلا أنه عثر عليها " ، متهما له بالسطو على منجزات الآخرين . فوصل هذا الكلام إلى ابن

(٦١) الذخيرة : ق١م١ ، ص ٢٦٨ .
(٦٢) الديوان : ١٢٧.
(٦٣) نفسه : ق١م١ ، ص ٢٣٩ .
(٦٤) نفسه : ق١م١ ، ص ٢٦٦ .
(٦٥) نفسه : ق١م١ ، ص٢٥٣ .

شهيد فرد عليه بقوله : ما أغيرك أبا بكر على نظم ونثر ، لو إليك كان العلم ، أو بكفك كان الفهم ، لم تترك لأرض أعلاماً ، ولا لغيرك إنعاماً ،أحشاً عند رعدتك ؟ ! عرضت عليك الدرمنظوماً ، فقلت : نعم ما صنعت لو اخترعت ، وما أحسن ما أطلعت لو ابتدعت ، معرضاً بالتقصص ، ومشيراً إلى التلصص ، هيهات ! لا يزيد الحز من الغرب ، ولا يضيء السليط في القصب ، لأقطعن حبالك هاجراً ، ولأتركن ليلك ساهراً "[٦٦].

مما سبق نتبين أن ابن شهيد قد جسد ما لديه من تمجيد لشخصه، وحب لذاته ، وزهو بمنجزاته الأدبية في أكثر من موضع في شعره ونثره، لا يرى لنفسه شبيهاً ولا نداً، وقد حمله ذلك الزهو والإعجاب والغرور على تعظيم شخصه والانتقاص من الآخرين، وتقزيم كل ما يصدر عنهم ، بنحو فج وسافر، وقد رأينا ذلك في أثناء حديثه عن نسبه المتمثل في أشجعيته، وحديثه عن حسبه المتمثل في مكانته بين قومه، ورأينا ذلك في حديثه عن ثقافته ومواهبه اللدنية والمكتسبة للتي يرى أنه فاق بها أقرانه المتقدمين والمعاصرين، ورأينا ذلك في حديثه عن خصومه، حيث بدا خصماً عنيداً وعدواً لدوداً، وذلك كله يصب في سياق نزعة استعلائية، وعظمةٍ رآها ابن شهيد في نفسه فراح يعبدها ويمجدها كما فعل المتنبي في عصرٍ ليس عنه ببعيد .

ونختم هذا البحث بكلمة ، فنقول : إن الفخر بالأنساب والأحساب شعراً أمر مألوف ومعتاد ومقبول إذا لم يكن فيه غلو وإفراط ، ولا عجب في ذلك ولا غرابة ، وقد رأينا كثيراً من الشعراء يفخرون بأحسابهم وأنسابهم ومواهبهم الإبداعية ، وهو من باب " وأما بنعمة ربك فحدث " ، ولكن حين يكون الحديث عن النفس عجباً واختيالاً وتباهياً وزهواً واغتراراً بما يصدر عنها ، وانتقاصاً واحتقاراً لكل ما يأتي من الآخرين ، فإن ذلك يصبح مرضاً وعلة ناجّة عن عقد نفسية معينة ، كحالة ابن شهيد الذي تضافرت عليه عوامل كثيرة ، جعلت منه الشخصية التي رأينا ، معجباً بنفسه ، معظماً لذاته كارهاً لمجتمعه ، ناقماً عليه ، كثير الهجاء له ، متقلب المزاج ، حاد الطبع ، نرجسي الشخصية .

---

(٦٦) الذخيرة : ق١م١ ، ص ٢٣١ . يقول محقق كتاب الذخيرة : هذه قراءة تقديرية ، والمعنى أن الغرب بطبعه لا يصلح للسهام ، فإذا أعددته ليكون سهماً فإن الحز لا يزيد من قيمته ، كما أن السليط يضيء في قنديل بسيط ، ولا يضيء إذا وضع في القصب ، وهي أنابيب من الجوهر.

مراجع البحث

١- ابن الأبار/ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي(٦٥٨هـ) ، الحلة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢ ١٩٥٨م .

٢- ابن بسام/ أبو الحسن علي الشنتريني (٥٤٢هـ) ، الذخيرة في محاسن الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٧م .

٣- ابن سعيد / علي بن موسى بن عبد الملك (٦٨٥هـ) ، المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٤ ، ١٩٦٤ م .

٤- ابو البقاء العكبري (ت ٦١٦هـ) ، ديوان ابي الطيب المتنبي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٨م.

٥- الثعالبي / أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (٤٢٩هـ) ، يتيمة الدهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية ، ١٩٧٩م.

٦- إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٦ ، ١٩٨١م .

٧- أحمد هيكل ، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ١٢ ، ١٩٩٧م.

٨- سيد قطب ، النقد الأدبي أصوله ومناهجه ، دار الشروق ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٩٨٠م .

٩- عبد الرقيب أحمد البحيري ، الشخصية النرجسية ، دراسة في ضوء التحليل النفسي ، دار المعارف ، ط١ ، ١٩٨٧م.

١٠- محمد خلف الله ، من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة، ١٩٤٧م .

١١- محيي الدين ديب ، ديوان ابن شهيد الأندلسي ورسائله ، جمع وتحقيق وشرح، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٧م

١٢- المقري / أحمد بن محمد التلمساني (١٠٤١هـ) ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق مريم قاسم طويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١، ١٩٩٥م .